

الهيمنة بين المؤلف الضمني والشخصية في روايتين لفلاح رحيم

الاستاذ الدكتور عقيل عبد الحسين

akeel.khalf@uobasrah.edu.iq

جامعة البصرة - كلية الآداب

الباحث علي كاظم داود

alidawwd@yahoo.com

جامعة البصرة - كلية الآداب

**Dominance between the implicit author and
the character In two novels by Falah Rahim**

**Prof.Dr. Aqeel Abdul Hussein
Researcher Ali Kadhim Dawood
Basra University - College of Arts**

Abstract:

This paper examines the manifestations of narrative hegemony in two novels by the Iraqi writer Falah Rahim, namely: (Hedgehogs on a Hot Day) and (The Sound of Drums from afar), through the implicit author and his relationship to ideology, the fictional character and its relationship to identity .

The term hegemony is one of the central terms in studies of critical discourse analysis, especially in the theoretical approach enacted by the English academic Norman Faircliffe, which is the adopted approach in this research. Therefore, it was worth starting with a brief definition of this theoretical trend, followed by the discussion of the implicit author, and then discussing his relationship with hegemony and ideology in the novel (The Hedgehogs on a Hot Day), and then moving on to discuss the relationship of personality with dominance and identity in the novel (The Sound of the Drums from Far). The analysis in this research is based on interpretation and interpretation, and linking the text with the social context .

Key words : (dominance , author , Character , a novel , analyzing , Speech , monetary , Salad , Ideology)

الخلاصة :

حث هذه الورقة تجليات الهيمنة السردية في روايتين للكاتب العراقي فلاح رحيم، هما: (القنافذ في يوم ساخن) و (صوت الطبول من بعيد)، وذلك من خلال المؤلف الضمني وعلاقته بالإيديولوجيا، والشخصية الروائية وعلاقتها بالهوية. ومصطلح الهيمنة من المصطلحات المركزية في دراسات التحليل النقدي للخطاب، وبالأخص في المدخل النظري الذي سنّه الأكاديمي الإنجليزي نورمان فيركلف، وهو المدخل المعتمد في هذا البحث. لذلك كان جديراً البدء بتعريف موجز لهذا الاتجاه النظري، يتلوه الحديث عن المؤلف الضمني ومن ثم بحث علاقته بالهيمنة والإيديولوجيا في رواية (القنافذ في يوم ساخن)، وبعدها الانتقال لبحث علاقة الشخصية بالهيمنة والهوية في رواية (صوت الطبول من بعيد). ويقوم التحليل في هذا البحث على التفسير والتأويل، وربط النص بالسياق الاجتماعي .

الكلمات المفتاحية: (هيمنة ، مؤلف ، شخصية ، رواية ، تحليل ، خطاب ، نقدي ، سلطة ، إيديولوجيا).

مقدمة:

اتجه التحليل النقدي للخطاب، منذ ظهوره مطلع تسعينيات القرن الماضي، إلى فهم اللامساواة الاجتماعية، وسعى للكشف عن إساءة استعمال السلطة، من خلال دراسة الكيفيات اللغوية، وغير اللغوية، التي تُصاغ بها، وتُقنن ويعاد إنتاجها، أو تتم مقاومتها وفضحها. ولذلك فالتحليل النقدي للخطاب يهدف إلى توعية الناس بالعلاقة التأثيرية والتأثيرية، التي تكون خفية غالباً، بين اللغة والبنى الاجتماعية، إذ يُنشئ جسراً بين التحليل النصي والعلوم الاجتماعية؛ لدراسة الخطابات المختلفة، وتفسير أساليبها في تمثيل علاقات الهيمنة.

كل نص هو، على نحو ما، خطاب، ولا وجود لنص بريء، فكل نص، مهما كان شكله أو نوعه، يحمل رؤية، وموقفًا، وارتباطًا بالمعطيات الاجتماعية، في الظاهر أحياناً، وفي المضمّر أحياناً أكثر. ومن هذا المنطلق، أمكن لهذه الدراسة التوجه إلى الخطاب الروائي، ليكون مجالاً للبحث، مستعينة بما يوفره التحليل النقدي للخطاب من مصطلحات وأدوات إجرائية، تتخذ الجانب النصي منطلقاً للتوعية بالهيمنة، والحث على العدالة والحرية، إذ يتعدى النقد دوره التقليدي الماكث في حدود النصوص؛ لترك أثر فعلي في الواقع.

التحليل النقدي للخطاب:

يعنى التحليل النقدي للخطاب بالهيمنة وعلاقاتها، وما دامت ثمة نصوص تتضمن أو تتمثل فرضاً أو تكريساً أو حتى مقاومةً لقوة أو سلطة أو أيديولوجيا، كان من المناسب تطبيق التحليل النقدي للخطاب عليها. إذ إنه يشكل منهجاً في البحث التحليلي، ينصرف لدراسة سوء استعمال السلطة، وتكريسها، وردود الفعل المقاومة لها، وكذلك أنساق الهيمنة الاجتماعية،

وعدم المساواة، التي يمكن الكشف عنها في النصوص والخطابات^٢. وبصيغة أكثر تحديداً، يركز التحليل النقدي للخطاب «على السبل التي تنتهجها بنى الخطاب في تفعيل علاقات السلطة والهيمنة في المجتمع، وتنفيذها وتأكيداها واستمرارها وتحديدها أو إضفاء الشرعية عليها»^٣.

المدخل النظري لفيركلّف:

ينقسم مدخل نورمان فيركلف للتحليل النقدي للخطاب إلى ثلاثة أبعاد: البعد النصي والبعد الخطابي والبعد الاجتماعي. ويسعى لدمج التحليل اللغوي للنص بالنظرية الاجتماعية، من خلال الجمع بين معنى الخطاب الاجتماعي وآثاره، وبين معنى النص الناتج عن التفاعل النصي. فأية حالة أو حادثة خطابية تتمثل، في الوقت ذاته، من خلال قطعة نصية، وتتفاعل في ممارسة خطابية، ومن ثم تتجلى أو تنعكس في ممارسة اجتماعية. تتم معاينة البعد النصي بتوسط التحليل اللغوي، مرتبطاً بتحليل المعنى. وأما بُعد الممارسة الخطابية، فيُنظر إليه من وجهة نظر سياقية، تستعين بالنظرية الحوارية أو التناصية؛ للكشف عن التفاعل الخطابي في النص. وأما بُعد الممارسة الاجتماعية الذي يعالج أهم القضايا في التحليل الاجتماعي، كالظروف التي أنتجت الحادثة الخطابية، والآثار المترتبة عليها، فلا يخرج عن إطار النظرة السياقية أيضاً^٤.

سيحاول هذا البحث تتبع التحولات في بُعد الممارسة الاجتماعية، وهو البعد الثالث في تقسيم فيركلف الثلاثي للخطاب، من خلال التفسير والتأويل، لمعرفة ما قد يطرأ من تغيرات على الإيديولوجيا والهوية، بفعل علاقات الهيمنة الاجتماعية، من خلال سبر وجهة نظر المؤلف الضمني والشخصيات في الروايتين.

يتجه البحث لاستقراء التجليات السردية للممارسة الاجتماعية، بمتابعة ما يطرأ على الهويات والإيديولوجيات الممثلة في النماذج الروائية من تغيرات،

محاوفاً الاقتراب أكثر من بواطن النصوص والخطابات وسبر دالاتها ومقاصدها، من خلال معاينة وجهتي نظر المؤلف الضمني والشخصية. متابعةً في ذلك لفيركلّف، الذي يقوم بتحليل التغيرات التي قد تطرأ على دور الخطاب في تشكيل الهويات والعلاقات الاجتماعية، وفي تشكيل نظم المعرفة والعقائد والإيديولوجيات، وإعادة إنتاجها وتغييرها^٥. ويرى فيركلف أن الذات لها «مواقع إيديولوجية، ولكنها أيضاً تتمتع بالقدرة على العمل الخلاق لإقامة روابطها الخاصة بين الممارسات والإيديولوجيات المتنوعة التي تتعرض لها، وعلى إعادة هيكلة الممارسات والأبنية التي تحدد المواقع. والتوازن بين الذات باعتبارها ناتجاً إيديولوجياً وبين الذات باعتبارها عاملاً فاعلاً، من المتغيرات التي تعتمد على الأحوال الاجتماعية مثل الاستقرار النسبي لعلاقات السيطرة»^٦.

يؤكد فيركلف في دراساته على طرائق تكوين الهويات والذوات الاجتماعية في الخطابات، وكيفية إسهام الخطاب في عملية التغيير الثقافي، وبعده جانباً خطائياً مهماً من جوانب التغيير الثقافي والاجتماعي. إذ إن المواقع الاجتماعية للذوات تشهد تحولات كبرى في المجتمعات المعاصرة، وربما يكون من أهم إسهامات التحليل النقدي للخطاب أن يكون وسيلة فاعلة في بحث تمثيلات هذه التحولات في الخطابات والنصوص. ويرى أن جميع أبعاد الخطاب والنص تسهم بنسب معينة، مباشرة أو غير مباشرة، في بناء النفس والهوية. وهو ما يسميه بالمنظور النقدي للبناء، أي دور الخطاب في تكوين النفوس والهويات وبنائها^٧.

المؤلف الضمني والإيديولوجيا والهيمنة:

المؤلف الضمني، هو مصطلح ارتبط بالناقد الأمريكي واين بوث، الذي رأى أن مؤلف الرواية عندما يكتب فإنه يصنع نسخة ضمنية من نفسه، تتشكل

صورته من قبل القارئ من خلال القراءة والتفسير، وهي صورة منحازة معرفياً بطبيعة الحال، وتسمح بالتدخل المباشر لوجهة نظر المؤلف ورغباته ومشكلاته الملحة، في العمل الأدبي، ويمكن الكشف عن المؤلف الضمني من خلال تعليقاته السردية في غضون الرواية^٨.

يوصف المؤلف الضمني بأنه «الصورة التي يتخيلها المؤلف لنفسه ويسقطها على الأثر. وهذه الصورة هي أنه الثانية أي تلك الأنا العميقة التي يجب أن تكون أصدق من أنا الوعي السطحية. (...)» وهذه الصورة المُسْقَطة هي المؤلف وقد أعاد القارئ إنشاءه إبان عملية القراءة بوصف هذا المؤلف هو ذات التلفظ الأساسية في النص (...) ولهذا القارئ أن يستتج استنتاجاً غير مباشر موقف المؤلف التأويلي أو الإيديولوجي من خلال ما اختاره هذا المؤلف من عالم قصصي مميز وما فضله من موضوعات وأساليب ومواقف إيديولوجية^٩، فمن خلال عملية القراءة والتفسير والتأويل يمكن الوصول إلى النوازع الإيديولوجية والمعرفية والمسااعي التغييرية لعلاقات الهيمنة في المجتمع، التي قد يضمها الكاتب في وجهة نظر مؤلفه الضمني. كما «إن النتائج الإيديولوجية هي أحد أنواع النتائج التي تسببها النصوص، وتحظى باهتمام التحليل النقدي للخطاب: تأثير النصوص في تثبيت الإيديولوجيات أو دعمها أو تغييرها. الإيديولوجيات ممثليات لجوانب من العالم، ويمكن إثبات إسهامها في إقامة العلاقات الاجتماعية المرتبطة بالسلطة والسيطرة والاستغلال، وصيانة هذه العلاقات أو تغييرها»^{١٠}. والمؤلف الضمني يمكن أن يقوم بالوظيفة الإيديولوجية في الرواية، وما يتبعها من نتائج.

من وسائل المؤلفين للتعبير عن وجهة النظر الإيديولوجية استخدام النعوت والألقاب والتسميات ذات الدلالات الخاصة والراسخة قيماً، أو ما يسميه أوسبنسكي الموقع التقويمي للمؤلف^{١١}. كما يمكن التعبير عن وجهة النظر تلك من خلال الأحكام العامة أو المطلقة والتأملات والعبارات الإيضاحية

الاعتراضية، التي تنفصل عن الأحداث والشخصيات لتمثل وجهة نظر المؤلف الضمني^{١٢}.

منذ استهلال رواية (القنفاذ في يوم ساخن) يواجه مؤلفها الضمني متلقيه، بتأملاته التي تفارق وظيفة السارد في جوهرها، متحدثاً بطريقة رؤيوية أو عرفانية، محاولاً تجريد تفسير سردي لبعض قضايا الإنسان وعلاقته بالمكان، فيبدوها بالقول: «لكل مدينة طريقته الخاصة في استقبال الغرباء، والمدن في ذلك تشبه الأشخاص. هنالك مدن تتطلع إليك بمزيج غريب من التعاطف والملل...» هنالك مدن تستقبلك بفخر واحتفاء لا تعرف لهما سبباً...^{١٣}، والواقع أن المؤلف الضمني ينقل انطباعه الشخصي الذي تكون أثر تجاربه الشخصية في تلك المدن. وهو يرى أن بعض الأمكنة يصعب للمرء الانفصال عنها، فيقول: «والمؤكد أن فراق المكان يزداد صعوبة وتعقيداً كلما طال مكثنا به، لأننا حينها نمد جذوراً متشابكة مهما كانت ضيقة ضئيلة في تربته أو رماله»^{١٤}.

يواصل المؤلف الضمني تحليله لعلاقة الإنسان بالمكان وارتباطه بالبيئة، مذكراً بثنائية المكان الأليف والمكان المعادي، ومميزات كل منهما من وجهة نظره، مستغلاً عالم السارد للنفوذ إلى القارئ من خلاله، فيقول: «إن هدوء البيت واطمئنانه يدجنان الوطن ويحولانه إلى مكان سعيد. ساحات الحرب تجعل الوطن فكرة دموية جنونية مدمرة. الأعوام التسعة التي قضيتها جندياً ضائعاً في المواضع والمعسكرات أظهرتني بالتفصيل على الطريقة التي يتجسد بها هذا الجنون. ولكن ما الذي يدجن المنفى؟ كيف يمكن أن يتحقق هدوء البيت وطمأنينته في عالم المنفى المتغير الذي لا يأبه لك ولمشاغلك؟»^{١٥}. ويستطرد بالتحديد في الحديث التأملية عن المنفى بالقول: «المنفى تأجيل مطول تنكور فيه على أنفسنا في عزلة وانتظار»^{١٦}. فحتى فكرة الوطن تخضع للتبدل المستمر في مخيلة الفرد تبعاً لارتباطه بعلاقات الهيمنة، فبين السلم والحرب

والهجرة ثمة خيارات لا نهائية يقترح كل منها صورةً جديدةً عن الوطن. ومن أجل ذلك يحاول المؤلف الضمني، في سياق هذه الموضوعة، إشباع آرائه تحليلًا وتقليبًا من عدة وجوه، فيقول: «بدأت أكتشف تدريجاً أن السائح لا يستحق هذه التسمية إلا إذا كان خارجاً من أرض ثابتة تحت قدميه تدعى الوطن، وأن الوطن لا بد أن يكون مستقرًا تلفه رتابة العيش الهادئ المستكين التي يتخلق في شرفقتها مشروع السائح. أما من يحيا مغامرة المنافي المرهقة فإن زيارة المدن الجديدة التي يجهلها ولا يعرف أحداً فيها تزيد إحساسه بالضيق والتشتت»^{١٧}. وهذه الرؤية، التي يجسدها خطاب المؤلف الضمني، لا تمنح صفة السائح إلا لمن يمتلك وطنًا حقيقياً آمناً، يعود إليه بإرادته متى انتهت جولاته السياحية، لا ذلك المنفي المتغرب قسراً والمبعد عن وطنه في ظروف القاهرة ربما سببتها هيمنة قوى سلبت منه الحياة الهادئة والعيش الكريم.

يستذكر المؤلف الضمني، الذي يقوم بمهمة السارد، موقفاً يكاد يكون منفصلاً تماماً عن مجريات الأحداث، كما لو أنه يستدعيه من أجل تمرير رسالة ما من خلاله، فيقول: «خطر لي موقف إنعام وهي تنقل إلى بيتنا في البعابعد عدداً كبيراً من أجهزة الكمبيوتر الخاصة بفرع بنك الرافدين الذي تعمل فيه حمايتها من الدمار المحتمل، قبل الهجوم الأمريكي عام ٢٠٠٣، ثم مبادرتها إلى إعادتها كلها بعد أن وضعت الحرب أوزارها. خطر لي أن هذا الموقف يمثل ولاءً للبنك بعيداً عن السلطة السياسية المحتملة، وأن الولاء للوطن لا يكتسب معناه إلا إذا كرّسه ولاء صغير كهذا»^{١٨}، فهذا الخطاب يحاول تكريس مفهوم الولاء للوطن، من خلال الإحساس العالي بالمسؤولية وتغليب الضمير الإنساني والممارسة التي تؤدي نفعاً عاماً، لا من خلال الخضوع القسري للسلطة، وما تفرضه إيديولوجيتها أو قوانينها التي قد لا ترعى مصالح الوطن والمواطنين بقدر ما تخدم مصالح الطبقة الحاكمة.

يستعيد السارد موقفاً، من ذاكرته، ويعالجه من وجهة نظر المؤلف الضمني، وذلك أنه رأى في أحد فنادق مسقط نادلة آسيوية، تكشف ملابسها عن كثير من جسدها، وتعمل بصحبة نادلة عمانية محجبة، وتتواصلان باللغة الإنكليزية، فيعلق على ذلك المشهد بالقول: «لقاء الآسيوية شبه العارية مع العمانية المحجبة في مهمة مشتركة، والانكليزية بوصفها لغة بدأت تفقد هويتها البريطانية وتتحول إلى شفرة عالمية، كل هذه العناصر تشكل أمامي لوحة عميقة الدلالة»^{١٩}، مشيراً إلى التلاقي والتواصل والتقارب بين الثقافات والشعوب، والتفاهم والتعايش بين الحريات والقناعات الشخصية، في العالم الحديث، الذي بات، كما يوصف دائماً، قرية صغيرة.

يسجل مؤلف الرواية الضمني تفسيراته وتحليلاته الشخصية تجاه بعض القضايا التي توصف أحياناً، أو كانت توصف سابقاً بالمصيرية، ومواقف السلطة البعثية في العراق تجاهها، وينقضها، منها مثلاً قوله: «العراقي عاش عقوداً من حياته لا يسمع في الإعلام العراقي نشرة أخبار إلا وتتصدرها وتهيمن عليها مشاغل القضية الفلسطينية، وشعار (كل شيء من أجل المعركة) كان يعني في العراق المعركة لتحرير فلسطين شبراً شبراً. لكن الكثير من المعارك نشبت منذ راج هذا الشعار وكانت القوات العراقية خلالها تندفع في الاتجاه المعاكس لموقع فلسطين على الخارطة، تارة نحو إيران وأخرى نحو الكويت. وهكذا أدرك العراقيون بالخبرة الدموية الفادحة أن حماسة الدكتاتور العراقي لفلسطين لم تكن إلا لذر الرماد في العيون وأن فلسطين ومصيرها لا يمثلان بالنسبة إليه أولوية من أي نوع»^{٢٠}. فالمؤلف الضمني هنا يأخذ موقع المحلل لخطاب السلطة، ويقارنه بممارساتها على أرض الواقع، ويكشف من خلال التناقض بينهما كذب وزيف هذا الخطاب. ثم، بعد حين، يربط بين أساليب الإيديولوجيا البعثية في فترة حكمها، وبين ما نتج في الواقع العراقي بعد سقوطها، فيقول: «خطر لي وأنا أفكر في تاريخ الدكتور حاكم الحافل

بالإنجازات في صفوف حزب البعث وحماسه القديمة لحماقات الديكتاتور أن البعث قد أنتج الخامة التي يعتمد عليها حمام الدم في العراق اليوم، وهي خامة ترفد الطرفين بالوقود اللازم»^{٢١}، وهذا التفكير أكبر بكثير من دور السارد في تسجيل الوقائع والمجريات، إنه تحليل يضرب في صميم صراع الإيديولوجيات والجماعات الساعية للسلطة والهيمنة على رقاب العراقيين، وكيف أن الإيديولوجيا البعثية يمكن أن تنزع جلدها السابق، القومي الاشتراكي، وترتدي جلوداً جديدة، إسلامية أو طائفية، قد تكون متناقضة ومتعارضة، في سبيل هدف وحيد هو ضمان وجودها والسعي إلى العودة مرة أخرى.

يكتب السارد خطاباً من محل إقامته في عُمان، إلى صديق له في العراق، متمثلاً رؤية المؤلف الضمني، كما لو أنه يخاطب العراقيين جميعاً إذ يقول: «لا تنتظر مكافأة على عذابك في العراق أو نهاية سعيدة. العراق مكان يخلو من المواساة، يخلو من احترام الفرد وأخذه في الاعتبار. لا تستسلم لهذا الفخ الذي طالما شلّ قدراتنا وحطم أعصابنا، العراق هو المكان الذي يكشف فيه التاريخ فضائحه وانشغاله بنزوات القوة على حسابنا»^{٢٢}، فيضع يده على إشكالية كبيرة في تاريخ العراق الحديث، إذ لعبت فيه نزوات القوة والهيمنة دوراً لا نظير له، على حساب الناس الذين لم يكن نصيبهم غير العذابات.

يوصل المؤلف الضمني دس رؤاه في مختلف الموضوعات، معبراً عن تجربة مغايرة تنتمي إليه فقط، ومنها رأيه في السرد عندما يقول: «يُخِيلُ إليّ وقد وصلتُ إلى هذه المحطة من حكايتي أن التعريف الأدق للسرد يمكن أن يُختزل في بضع كلمات: السرد هو تحويل المصادفة إلى سبب»^{٢٣}، فهو يعلن عن وجوده السافر في الرواية بنسبة الحكاية إلى نفسه، ساحباً البساط من تحت قدمي السارد، ثم يجعل من المصادفات التي ترد في السرد تبريراً لانبثاق أحداث ورؤى جديدة. ومنها حديثه عن الانتظار الذي أنهك العراقيين، سواء

من صبروا في الداخل أو من سنحت لهم فرصة الهجرة، «الانتظار قدرنا جميعاً... حياتنا انتظار طويل تتوزع عليه محطات براق خاطفة من تجارب غنية متوهجة تنزود بها لتحمل انتظار جديد»^{٢٤}، أما الوصول إلى الوجهة النهائية التي تبرر هذا الانتظار الطويل والمضني فلن يتحقق أبداً. ومنها أيضاً قوله: «لقد منح التاريخ العراق صفة فاعل فرد ينشط على مسرح العالم بأسره حتى صار من الصعب على أبنائه تقديم أنفسهم كأفراد، صاروا هم أيضاً فاعلين خرافيين في حدث كبير يتخطاهم ويستعين بهم»^{٢٥}، فالعراقيون واقعون جميعاً في حلبة صراع شرس على الهيمنة، تختفي فيه خصوصياتهم الفردية والإنسانية.

نختم مع رواية (القنafd في يوم ساخن) مع هذا المقتبس الذي يتضمن إشارة عميقة، فيقول: «ولم أشأ أن أحدثها عن أمجاد المعتزلة التي دفنها غبار السلفية والجمود»^{٢٦}، فهو يشبُّ هنا عن سياق الحديث المُقتضى في الرواية، إلى إشارة تحفر عميقاً في تاريخ صراع الأفكار والخطابات الإسلامية، منتصراً للاعتزال على حساب المذاهب السلفية التي يصفها بالجمود، تلك المذاهب التي استعملت قوة السلطة، أو استعملتها السلطة وسيلةً ومبرراً لفرض هيمنة إيديولوجية وسياسية، فشنت حرباً ضروساً على التيارات والمذاهب المناوئة لها، حتى أدت إلى تغييب العديد منها، ومن أبرزها مذهب المعتزلة الذي ينوه المؤلف الضمني بأمجاده المعرفية.

الشخصية والهوية والهيمنة:

ينصرف البحث لدراسة التمثلات السردية للهوية، في رواية (صوت الطبول من بعيد)، من خلال تتبع وجهة نظر الشخصية، وتغيّرها، أو تأثرها بالتغيير في علاقات الهيمنة الاجتماعية، وكيف يمكن أن تُصاغ ويُعاد تشكيلها خطائياً، أي في الخطاب الروائي. وذلك انطلاقاً من رؤية نورمان فيركلف،

الذي يركز «على بناء الهويات الاجتماعية، أو على بناء الذات في الخطاب، وبصفة أخص على الطرائق التي يسهم بها الخطاب في عمليات التغيير الثقافي، وهي التي تتعرض فيها الهويات الاجتماعية أو الذوات (...)» لإعادة التحديد وإعادة التكوين»^{٢٧}. إذ ينظر للهويات بوصفها قابلة للتبدل والتغير وإعادة التشكل بفعل علاقات الهيمنة الاجتماعية.

تشهد المواقع الاجتماعية للذوات تحولات كبرى في المجتمعات المعاصرة، وربما يكون من أهم إسهامات التحليل النقدي للخطاب أن يكون وسيلة فاعلة في بحث تمثلات هذه التحولات في الخطابات والنصوص. وقد ربطت النظريات ما بعد الحداثيّة عموماً «ربطاً وثيقاً بين الهوية والخطاب، وغالباً ما يقال إن الهوية (أو الذوات) نتيجة الخطاب، مُشَيِّدة في الخطاب»^{٢٨}.

الهويات، إذن، سواءً كانت فردية أو جماعية، وبحسب هذه النظرية، التي يعتنقها محللو الخطاب النقيدين، ما هي إلا نتيجة علاقة جدلية، قابلة للتغير والتبدل؛ لأنها لم تنجم عن سيرورة نصية أو لغوية وحسب، بل عن سيرورات اجتماعية وتاريخية أيضاً. وهذه النظرة تتوافق مع الرأي الرائج ثقافياً في دراسات الهوية، التي ترى أن الهوية ليست مُعطى ثابتاً ومطلقاً، ولا جوهرًا جامدًا وساكنًا، ولا قولًا ناجزًا ونهائيًا، بل هي خاضعة لجدليات الزمان والمكان وتحولات المجتمع، فهي في جزء منها تدخل في عملية تشييد وبناء وتجدد وتفاعل مستمرة، وهي حصيلة يعاد بناؤها وتنميتها على الدوام^{٢٩}.

يجسد الخطاب في رواية (صوت الطبول من بعيد) تورط سليم في إشكاليات عديدة مع السلطة تدفعه إلى التفكير في حلول عديدة للخروج من أزمتة، وعندما سأله والدته وهو يختبئ في بيت خاله، بعيداً عن أعين البعثيين، «قال بجزع: لن أبقى في الزعفرانية، بالتأكيد لن أبقى، سأجد وسيلة تجنبني المواجهة معهم»^{٣٠}، فهو يعلن عن احتمالية لجوئه إلى المناورة، أو إجراء

تغييرات في بعض قناعاته أو سلوكياته أو أفكاره؛ بهدف تجنب مواجهة قوى الهيمنة، التي لطالما كانت تستعديه أو تلاحقه بسبب أفكاره الشيوعية المتصارعة مع الفكر البعثي. الأم، في المقابل، «توقعت ببساطتها منذ البداية أن يكون التحالف المشؤوم بين البعثيين والشيوعيين فخاً، وأن حماسته الشيوعية كانت خطأ. لم تشأ أن تقسو عليه. وهو بدوره لم يقل لها إن المشكلة ليست في ولائه للعقيدة بل في كراهيته لهؤلاء الذين يطبقون بأيد من حديد على رقاب الناس»^{٣١}، فتبدو وجهة نظر الأم بالضد من الطرفين المتصارعين، ودليلاً تحالفهم الذي تصفه بالمشؤوم، الذي استخدمه البعثيون فخاً للإطاحة بغرمائهم. غير أن وجهة نظر سليم تضع المشكلة في الهيمنة، واتخاذ موقفها مناهضاً لها، ورافضاً لممارساتها الإرغامية تجاه الناس.

يدور حوار بين سليم وابن عمه، يتجسد فيه عزمه على تغيير نفسه، أي التعامل بواقعية أكبر من ذي قبل: «استشهد ﴿سليم﴾ منكسراً بقول جبران خليل جبران: المبالغة، يا ابن عمي، حقيقة فقدت صوابها. ومهمته القادمة أن يطبع وجوده في هذا العالم بعيداً عن المبالغات والجنون»^{٣٢}، فتكاد رؤية العالم لدى سليم تعلن عن تحول كبير، ومن ثمّ تغيير في هويته، فبعد الحماس للأفكار الشيوعية، صار يتجه إلى الواقعية والبراغماتية، وإيجاد أسلم الطرق في التعامل مع علاقات الهيمنة الاجتماعية، مبتعداً عن مجازفات الشباب وتهورهم.

أحياناً تنكشف وجهة نظر سليم من خلال حديثه مع نفسه، أو ما يدور في ذهنه، إذ يحلل المواقف ويفسرها، ويستعرض موقفه تجاه علاقات الهيمنة، فنقرأ مثلاً: «سليم بدأ يدرك، كلما تراكمت عليه الأيام في الزعفرانية، أن وجوده برمته قد فلت عقاله من يده، وأنه فقد الثقة القديمة في أن المرء مهندس مستقبله، يصنعه كما يهوى ﴿...﴾ عليه أن يقرر ويختار ولا عون له في الحسم إلا حدسه. حتى العقل الذي اعتنقه مفتاحاً لكل عسيرة لن ينفع، ذلك أن

الهرب من بطش الأمن العامة لا يكون إلى مخاطر جهاز المخابرات، هذا ما يقوله العقل»^{٣٣}. فقد بدأت تطراً تغيرات جوهرية على شخصية سليم، بفعل الزمن، وبفعل تغير طريقة إدراكه لعلاقات التسلط المستحكمة في المجتمع، وأخذ يعيد قراءة المقولات الراسخة من خلال وعيه الجديد، ويشكك في مصداقيتها، ومنها مقولة: إن المرء هو من يقرر كيف سيكون مستقبله، وهو من يصنعه بحسب ما يهوى. إذ وجد أن عقله يقول له: إن حياته في ظل مؤسسات الهيمنة لا تعدو أن تكون مجازفة أو ضربة حظ، قد تصيب فينجو، وقد تخطئ فينتهي أمره، وهو في وسط هذه الدوامة القاتلة لا يمتلك زمام مصيره، أو رسم الصورة التي يرجوها لمستقبله.

وفي سياق حديث سليم مع صديقه القديم حبيب، يبين موقعه الذاتي ووجهة نظره الشخصية في صراع الهيمنة الذي دخله يوماً ما، ويسعى للخروج منه سالماً، فيقول: «أدركت منذ وقت طويل أثناء وجودي في صحراء أم قصر أن شاغلي لم يعد سياسياً. ما يدفعني إلى البحث عن ملاذ يمنع عني شرور النظام وتفاهاته الآن دافع أخلاقي أكثر منه سياسي»^{٣٤}، فهو يعلن عن تبدل في هويته السياسية، وانسحاب دوافعها التي كانت تحركه سابقاً إلى الوراء، لتقديم دوافع أخرى عليها. صارت أولوياته شخصية أو إنسانية أو أخلاقية أو براغماتية في المقام الأول، بعد أن تخلّى عن حماسة المواجهة مع السلطة، وابتعد عن تلك الطريق الخطرة التي كان يسلكها.

في حوار مع سليم، يقترح حبيب بعض الحلول لمشكلته، ومنها: الابتعاد عن بغداد؛ بسبب خضوعها لتدقيق شديد؛ لأنها العاصمة، وأن يتجه «إلى المحافظات الغربية. لا تذهب إلى الجنوب أو الوسط أو الشمال. لن تجد في المحافظات الغربية الموالية التدقيق والتحري والشك الذي يمكن أن تجده في المناطق الأخرى، خصوصاً بعد أن نشط حزب الدعوة وبدأت المناوشات مع إيران تصل حافة الهستيريا. قناعتي أن خير مكان يحميك هو الاختباء تحت

جناح النسر؛ لأنه سينشغل عنك بما تلتقط عيناه على مسافات بعيدة»^{٣٥}، وهذا الخطاب يحمل رؤية حبيب لعلاقات الهيمنة وتعامل السلطة المتباين مناطقياً، بحسب الولاء والطاعة لها. وهو يشير، ضمناً، إلى أن السلطة قد قسّمت الناس إلى هويات فرعية أو مكانية أو عرقية متعددة، ولا تتعامل معهم وفق الهوية العراقية الواحدة التي يتساوون جميعاً في الانتماء إليها. أي إن المكان الذي ولد فيه الفرد، أو عاش فيه، سيفرض عليه طبيعة تعامل مغايرة عن الذي ولد في مكان آخر من البلد نفسه، مما يجعل منه آخرًا بتأثير علاقات الهيمنة.

يواصل حبيب إسداء نصائحه ونقل خبراته لصديقه، مضمناً خطابه بعض مواقفه الفكرية، التي تبدو، على بساطة طرحها، عميقة الدلالات، فيقول: «لا تخش شيئاً؛ لأن المعركة في أصلها نكتة ماسخة لا تستحق التضحية بالحياة من أجلها. قُتل الكثيرون وهنالك عدد أكبر يقبع في السجون والمعتقلات. من أجل ماذا؟ هل رأيت صدام حسين يرتدي قبعة الفرو الروسية ويتبختر بصحبة بريجنيف قائد الحركة الشيوعية العالمية؟ ألم تره يلوك السيجار الكوبي مع كاسترو المناضل الأُمّي في كوبا؟»^{٣٦}. يستعرض حبيب بعض معطيات علاقات الهيمنة العالمية والمحلية، فمن يبدو في داخل العراق معادياً للشيوعية، ومحارباً لأفكارها، ومن شنّ حملات اعتقال وإعدام على المؤمنين بها من العراقيين، يظهر في خارج العراق حليفاً للشيوعية ذاتها، ومناصرّاً لأبرز رموزها في العالم. ما فعله صدام، بحسب تفسير حبيب له، يؤكد إن الصراع بمجمله ليس سوى لعبة، وإن من قتلوا ومن دخلوا السجون والمعتقلات جميعهم وقعوا ضحية خدعة كبيرة، فدفعوا حياتهم أو شطراً منها من أجل نكتة ماسخة لا تستحق التضحية.

يرد سليم على محاوره: «تأكد، حبيب، أن الأمر برمته لم يعد يتعلق بولاء سياسي، أو حتى بإيمان بجدوى السياسة في هذا البلد. لا رغبة لي حتى في الهرب من البلاد، الهرب موقف سياسي دال على الرغبة في مواصلة النضال.

وهو ما لا أفكر فيه. السياسة أكبر مني، دهاليزها ومنعطقاتها وأسرارها أكبر مني. يكفي ما ارتكبت من حماقات. أود أن أجد بداية جديدة. ما يشغلني ليس البعث كغريم سياسي للشيوعيين، ما يشغلني أن الحياة في هذا البلد لم يعد لها طعم. تحولنا جميعاً إلى أرقام في مسيرة حاشدة تتعالى منها هتافات خاوية سمجة. أشعر بالاختناق لأن التفاهة والتسلط والتسطيح هي المصير الذي ينتظرنا لا محالة»^{٣٧}. يعلن سليم تخليه التام عن هويته السياسية، وأن انخراطه في العمل السياسي كان مجرد حماقة، وهو يسعى الآن للتغيير، أو أنه بدأ التغيير فعلياً، ابتداءً بتغيير نظرتة إلى البعث من غريم سياسي للحزب الذي كان ينتمي إليه، أو الفكر الذي كان يحمله، إلى قوة هيمنة ضاغطة ومدمرة لحياة كل الذين يعيشون في العراق. إذ تحولوا جميعاً إلى طبقة خانعة ومهيمن عليها، تستجيب لإرادة السلطة، في جميع رغباتها ونزواتها. كما نلمس في خطابه إشارة إلى أحد أساليب الهيمنة التي اتبعتها مع الناس، وهي إشاعة ظاهرة تسطيح الوعي وبث الجهل؛ فكلما انخفض منسوب الوعي لدى الجماهير كلما كانت السيطرة عليهم أيسر وأسرع، وكان أمدّها أطول.

يتورط سليم في موقف، لا يحسد عليه، إذ يكلف بمهمة من الشركة التي يعمل لصالحها، في مدينة الرمادي، تؤدي به لمراجعة دائرتي الأمن والمخابرات هناك. في البداية كان يأمل أن تكون القضية في مركز الشرطة، لكن بعد برهة «أطرق سليم وسأل نفسه: هل هناك حدود فاصلة بين مفاصل آلة القمع التي تلتهم الناس وتداولهم بتنسيق وكفاءة؟»^{٣٨}، فهو يرى أن جميع أجهزة السلطة تعمل بالتوازي من أجل هدف واحد ومحدد هو قمع من يحاول المساس بها.

عندما يذهب إلى المخابرات، يجبر سليم على توقيع ورقة يتعهد فيها بالتعامل معهم، لكن حديثه مع نفسه يكشف ما يجول في سريره، كما تنقله الرواية: «هل يعقل أن يوقع عقداً للتعاون مع المخابرات بينما هو مطارّد يحوم

جلاوزة الأمن حول داره ويتعقبون خطاه؟ هل يرفض البعث ويقبل مخالفه السامة؟ لم لم يرفض بشجاعة ويترك العمل برمته للحفاظ على كرامته؟ تذكر ما قال حبيب عن اللعبة وضرورة إتقانها والتقلب معها حتى تحين لحظة الثأر»^{٣٩}، فعندما يُسائل سليم نفسه، فإنه يقوم بتحليل الموقف الذي يجب عليه التعامل معه بحكمة، ويستعرض شراسة مؤسسات الهيمنة التي قد تفتك به مخالفها السامة في أية لحظة، إن هو أخطأ واقترب هفوة أمامها، أو جازف في نقل خطوة دون أن يدرس عواقبها جيداً، الأمر الذي صنع له هوية متغيرة، تستجيب للظروف والمخاطر المحدقة به.

الخاتمة:

اتخذ المؤلف الضمني والشخصية موقع المستهلك للخطاب وللمرويات الداخلية في الرواية، وأسهما في التشكيك بالهيمنة، من خلال استعراض التغيرات التي تطرأ على الإيديولوجيا والهوية، تجسيدا للتغيرات الحاصلة في الوعي والرؤية ووجهة النظر، بفعل علاقات السلطة والهيمنة في المجتمع. وقد عمل المؤلف الضمني والشخصيات على تعرية نوازع الهيمنة من خلال تفسيراتهما للمواقف والملفوظات، وتعليقاتهما على الأحداث والحوارات، وبث مقولاتهما وأحكامهما النابعة من رؤى وتوجهات ذاتية .

هوامش البحث

١. يُنظر: من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي: تبسيط التداولية، بهاء الدين محمد مزيد، شمس للنشر والإعلام، القاهرة، د.ط، ٢٠١٠، ص ١٠٨.
٢. يُنظر: الخطاب والسلطة، توين فان دايك، ترجمة غيداء العلي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٤، ص ١٨٩.
٣. نفسه، ص ١٩١.

- ٤ . يُنظر: الخطاب والتغير الاجتماعي، نورمان فيركلف، ترجمة محمد عناني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٥، ص١٦.
- ٥ . يُنظر: نفسه، ص٢٤.
- ٦ . نفسه، ص١١٧.
- ٧ . يُنظر: نفسه، ص٢٠٧.
- ٨ . يُنظر: بلاغة النص القصصي، واين بوث، ترجمة أحمد خليل عردات وعلي بن أحمد الغامدي، جامعة الملك سعود، الرياض، د.ط، ١٩٩٤، ص٨٣-٩٠.
- ٩ . معجم السرديات، محمد القاضي، دار محمد علي للنشر، تونس، ط١، ٢٠١٠، ص٣٦٧.
- ١٠ . تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، نورمان فيركلف، ترجمة طلال وهبه، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٩، ص٣٥.
- ١١ . يُنظر: شعرية التأليف، بورييس أوسبنسكي، ترجمة سعيد الغانمي وناصر حلاوي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، د.ط، ١٩٩٩، ص٢٤.
- ١٢ . يُنظر: بناء الرواية، سيزا قاسم، هيئة الكتاب، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٤، ص١٩٢-١٩٣.
- ١٣ . القنافذ في يوم ساخن، فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠١٢، ص١١.
- ١٤ . نفسه، ص١٢.
- ١٥ . نفسه، ص١٥.
- ١٦ . نفسه، ص١٦.
- ١٧ . نفسه، ص١٧.
- ١٨ . نفسه، ص١٣.
- ١٩ . نفسه، ص١٤.
- ٢٠ . نفسه، ص٤٣-٤٤.
- ٢١ . نفسه، ص١٥٨.
- ٢٢ . نفسه، ص٨٥.
- ٢٣ . نفسه، ص٨٧.
- ٢٤ . نفسه، ص١٢٣.
- ٢٥ . نفسه، ص٣٧.

- ٢٦ . نفسه، ص ٢٥٣.
- ٢٧ . الخطاب والتغير الاجتماعي، سابق، ص ١٦٩-١٧٠.
- ٢٨ . تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، سابق، ص ٢٩٧.
- ٢٩ . يُنظر: اللغة والهوية في الوطن العربي إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، مجموعة مؤلفين، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط١، ٢٠١٣، ص ٢٢٨.
- ٣٠ . صوت الطبول من بعيد، فلاح رحيم، دار الرافدين، بيروت، ط١، ٢٠٢٠، ص ٢١.
- ٣١ . نفسه، ص ٢٢.
- ٣٢ . نفسه، ص ٢٣.
- ٣٣ . نفسه، ص ٣١.
- ٣٤ . نفسه، ص ٣٤.
- ٣٥ . نفسه، ص ٣٥.
- ٣٦ . نفسه، ص ٣٦.
- ٣٧ . نفسه، ص ٣٦.
- ٣٨ . نفسه، ص ٧٣.
- ٣٩ . نفسه، ص ٨٣.

قائمة المصادر والمراجع

- ١ . بلاغة النص القصصي، واين بوث، ترجمة أحمد خليل عردات وعلي بن أحمد الغامدي، جامعة الملك سعود، الرياض، د.ط، ١٩٩٤.
- ٢ . بناء الرواية، سيزا قاسم، هيئة الكتاب، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٤.
- ٣ . تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، نورمان فيركلف، ترجمة طلال وهبه، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.
- ٤ . الخطاب والتغير الاجتماعي، نورمان فيركلف، ترجمة محمد عناني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٥.
- ٥ . الخطاب والسلطة، توين فان دايك، ترجمة غيداء العلي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٤.

٦. شعرية التأليف، بوريس أوسبنسكي، ترجمة سعيد الغانمي وناصر حلاوي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، د.ط، ١٩٩٩.
٧. صوت الطبول من بعيد، فلاح رحيم، دار الرافدين، بيروت، ط١، ٢٠٢٠.
٨. القنفاذ في يوم ساخن، فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠١٢.
٩. اللغة والهوية في الوطن العربي إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، مجموعة مؤلفين، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط١، ٢٠١٣.
١٠. معجم السرديات، محمد القاضي، دار محمد علي للنشر، تونس، ط١، ٢٠١٠.
١١. من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي: تبسيط التداولية، بهاء الدين محمد مزيد، شمس للنشر والإعلام، القاهرة، د.ط، ٢٠١٠.